

وذلك أن مجد القبائل العربية حينئذ كان يقوم على دعامتين ، يدور حولهما التنافس ، وهما الفروسية والشعر ، وهما وإن كانا ينتهيان إلى غاية واحدة ، هي القوة بشقيها المادى والأدبى ، إلا أنهما شقان وفرعان متميزان ، أحدهما الفروسية بما تقتضيه من صفات اجتماعية تدعمها ، وبما تحققه للقبيلة من شعور بالعزة ، ومن هبة تحميها وتحمى وسائل عيشها من طمع الطامعين ، والآخر الشعر في صورته الاجتماعية ، من حيث إنه يمثل القوة النفسية والإعلامية التي تهدف إلى ملء نفوس القبيلة بالعزة والفخر ، وملء نفوس القبائل الأخرى بالتهيب والحذر من هذه العزة التي يصورها شعر هذه القبيلة .

والوجه الحسن لحظ الخنساء أنها رأت بعينها هاتين الدعامتين في أكمل صورهما ماثلتين في بيت أبيها عمرو بن الشريد ، متمثلتين في أخويها صخر ومعاوية بوصفهما دعامة الفروسية والبطولة ، وفيها هي بوصفها دعامة الشعر ، وقد اكتملت صورة العزة والمجد في معاوية وصخر حينئذ بلغا من المجد والشهرة أن يرتادا بهما أبوهما الأسواق والمخاض العامة التي تجمع وفودا من سائر القبائل ، فيمسك بيديهما ويقول : أنا أبو خيري مضر ، فلا ينكر عليه أحد قوله ، وهي أقصى صورة يحلم بها طالب مجد ، وأما الدعامة الأخرى وهي الشعر فقد اكتملت صورتها في الخنساء حين بلغت منذ فجر شبابها في حياة النابغة الذبياني حكم سوق عكاظ أن تسهم بشعرها في هذا السوق الذي كان أكبر محفل عربي في الجاهلية ، وقد بلغت من منزلتها الشعرية حينئذ أن يعلن النابغة الذبياني قوله المشهور للخنساء : لولا أن أبا بصير - يعنى الأعشى - أنشدني قبلك لقلت إنك أشعر العرب ، وإذا كانت الخنساء لم تنافسها امرأة أخرى في الشعر ، كما يقول ابن الأثير (أجمع أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها) ^(٣) وكذلك حتى اليوم ^(٤) فإن النابغة يخرج بها من دائرة النساء إلى التفضيل على الرجال ، ولم ينكر على النابغة في هذا أحد ، بل مما يروى في سياق شهرة الخنساء بهذه المنزلة أن النبي صلى الله عليه وسلم كرمها بهذه المنزلة ، حين وفد عليه عدى بن حاتم الطائي ، وأراد أن يفخر بقبيلته أمام النبي قائلا : فينا أشعر الناس ، امرؤ القيس ، وفينا أفرس الناس عمرو بن معد يكرب ، وفينا أجود الناس حاتم بن سعد ، ولو سكت النبي لكان هذا إقراراً منه لقول عدى ، ولكنه قال : ليس كما قلت يا عدى ، ولكن أشعر الناس الخنساء بنت عمرو ، وأفرس الناس على بن أبي طالب ، وأجود الناس محمد بن عبد الله .